في الأدب

ليلة المولد ..

للشاعر الناثر الأستاذ عبد الله عفيفي

الشرق العربي لديوان جلالة الملك

أرأيت إلى النور القدسي كيف يخترق الطباق . وينتظم الآفاق ؟ وإلى الكمال العلوي كيف يجتمع في رواق . ويلتقي في نطاق؟ وإلى النفحة الإلهية كيف تملأ الأرجاء ، وتسلك الفضاء ، وتغمر الأرض والسماء ؟ وإلى الرحمة السماوية ، كيف تفيض من بقية ، فتعم البرية ، وتنشر السوية ؟ وإلى دولة الحق كيف تصول ؟ وإلى راية الأفك كيف تحول ؟ وإلى قوة الظلم كيف تذول ؟ وإلى ملة الإثم كيف تزول ؟ وإلى أركان إيوان كسرى كيف تتضور ؟ وإلى أعلام معاقل قيصر كيف تتكسر ؟ وإلى أستار أسرار الكهان كيف تتحسر ؟ وكل ذلك في لحظة واحدة ، من ساعة واحدة ، من ليلة واحدة . . .

سبحانك اللهم يا مرسل النعم ، ومنشيء الأمم ، لقد أنعمت ، وأفضلت ، وأحسنت ، وأجللت ، وكان أعظم إنعامك وإفضالك ، وأجل إحسانك وإجلالك ، ما تجليت به على الوجود ، في فجر يوم الاثنين ، لعشر خلون من ربيع الأول ، بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، بأحدى وستين وخمسمائة عام .

وكانت نعمتك في هذه اللحظة ، سابغة على العباد والبلاد ، لم تخص بها قوماً دون قوم ولم تؤثر بها يوماً دون يوم بل السنى ، شملت بها القصي والدنى وحفلت بها الفقير والغنى ، وأسبغتها على الأبيض والأصفر ، وأغدقتها على الأسود والأسمر ، وأدمتها على الخلق أجمعين ، أبد الآبدين ، إلى يوم الدين .

هذه اللحظة التي زلزلت الدهور ، ورججت العصور ، هي التي أشرق فيها نور سيد المرسلين ومنقذ العالمين ، وقامع الظالمين ، محمد النبي الأمين .

تبارك الله ذو الجلال والإكرام ، أي عدل وضع ، وأي ظلم رفع ، وأي إحسان أفاض ، وأي طغيان أعاض ، حين أدرك آمنة المخاض .

لقد أذن الله للعالم في هذه الليلة أن يهتدي بعد الضلالة ، وأن يستنير بعد الجهالة ، وأن

يتحاب بعد العدوان ، وأن يتآخى بعد الطغيان ، وأن يطهر بعد المآثم ، وأن يعدل بعد المظالم ، وأن يعبدالله لايشرك به سواه ، وبهذا التوحيد وحد رايته وغايته ، وسره وعلانيته .

وكان بدء مخاض آمنة المصونة المأمونة ، حين انتشر السحر من ليلة الاثنين ، وكان المخاض على ماعودها الله من التيسير ، هينا ليناً لا يحتاج إلى متونة أو معونة إلا برعاية الله التي أحاطت بها في ساعاتها كلها ، فما ابتسم الفجر حتى استهل نور سيد الوجود ، فأشرقت من البيت بارقة أضاءت الأرض والسماء ، وشملت الرحاب والشعاب ، حتى رأت آمنة أعناق الإبل في أصقاع الشام . وهبط ﷺ على الأرض معتمدا على يديه وركبتيه كالساجد لله ثم رفع بصره وسبابته إلى السماء ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض فكان ذلك آية بسط ، سلطان الإسلام على جميع الأنام .

ولقد جله الله وطهره ، وكمله حين أظهره ، فأخرجه طيبا طهورا مختونا مسرورا ، يسطع من وجهه جمال ملكي زكي ، آثره الله به وضم أطرافه إليه .

وبعد أن أتم الله نعمته على آمنة أرسلت إلى عبد المطلب فجاءه البشير وهو جالس في الحجر ، وحوله بنوه ، ورجال من أشراف قومه ، فلما رأته البشرى ، تهلل وجهه بالبشر ونهض هو ومن كان معه إلى دار آمنة ، فلما كشفت عن وجه الوليد الأعز الأكرم ﷺ ، واجتلى نوره الساطع ، وحينه الناصع ، وعرف حديث آمنة عما رأت وسمعت سماه محمدا ، وقال سيكون لابني هذا شأن ، ومادرى أن الله جعل له كل شأن ، ثم احتمله والناس حوله ، ودخل إلى الكعبة المقدسة ، فطاف بها وهو يقول :

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالله ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان أعيذه من شر ذي شنآن
من حاسد مضطرب العنان

في الريف

لله در سواحب رافقتهم يوما إلى حيث الخلاء يضوع
وأرى الخلا فيه النسائم غضة يجري بها المكلوم والمصروع
مرنا على بسط الطبيعة نجتلي حسنا هنالك زانه التوشيح
وأمامنا الليمون فاح شذيه فأزعت الأماكن والربوع
والزهر ميسان على أفنانه متنوع الألوان وهو مريع

دقادوس

زكي على العالم

الخطابة فى العصر العباسى

بقلم الأستاذ محمود الشنيتى
المدرس بدار العلوم العليا

وجدت الخطابة فى صدر هذا العصر كل دواعى النهوض والارتقاء ، فلقد كان قيام الدولة العباسية بمعاضدة الفرس والتنكيل بسادة العرب من بنى أمية ، أمراً يترك فى نفوس بعض العرب شيئاً من الحفيظة والتحفظ ، لا سيما أولئك الذين وجدوا فى ظلال الحكم العربى (إبان بنى أمية) معزة وسلطانا ، وأصبحوا وليس لديهم من ذلك المجد الشامخ إلا ذكراه والحنين إليه ، وليس لبنى العباس أن يتركوا أمثال هؤلاء يكمن الحقد فى نفوسهم حتى إذا ماوجد من أولى الأمر عزة واستهانة اضطرم لهبه ، وأشعلها فتنة عمياء تأكل الأخضر واليابس ، كما ليس لهم أن يأخذوا بالسيف كل من يمت إلى الاموية بسبب ، أو يحن إلى عهدهم ، ويأسى على ملكهم ، أدرك السادة من بنى العباس كل هذه الأمور فتوجهوا إلى جمهرة العرب يأخذونهم بالقول البليغ ، والحجة الناصعة ، ولقد كان الشعب العربى لذلك العهد ما يزال سريع التأثر بالبلاغة ، والانقياد للخلابة الشعرية ، يوزه القول الحسن ، وتأخذه الروعة الخطابية ، ويفعل بألبابه سحر البيان ما يعجز عنه السيف والسنان ، كما كان الخلفاء والأمراء من بنى العباس أهل ذكاء وفطنة ، وذوى بلاغة أخاذة ، لا يعوزهم فى موقف الخطابة بديهة حاضرة ، ولا حجة دافعة ، ولا بيان رائع ، ولا إيمان راسخ ، ولا اقتناع بما يخوضون فيه ، وما ظنك بأمثال أبى جعفر والسفاح وعمهما داود بن على بن عبد الله بن عباس ، وابن عمهما عبد الملك بن صالح ومن ينتمى إليهم من أهل الفصاحة ورجال البيان ، كشبيب بن شبة العقانى ؟ بل ما ظنك بأبناء (على بن عبد الله) وقد أذاقهم بنو أمية نكال التنكيل والتشريد ، وأبعد الوليد بن عبد الملك أبهم (عليا) وأهله إلى قرية نائية منعزلة فى طراف الشام تسمى (الحميمة) سنة ٩٥ هـ وضرب بينهم وبين العالم بسور من الوقاية والضغط الشديد ، فشبوا على ما يشب عليه كل عزيز سلب عزه ، من الحفيظة وارتقاب الفرص للتنكيل بمن أذله ، ونشأوا كما ينشأ أهل البادية فى ألفة وحمية ، وميل إلى النضال والمخاطرة ، ثم هم بعد كل ذلك أهل بيت عريق فى البيان ، فيهم نزلت الحكمة ، ومن عندهم أشرق نورها ، والحق أن القارئ لما أثر عن أولئك السادة العظاريف ، لا يستطيع إلا الإعجاب بسحر بيانهم ، وقوة حجتهم ، وبراعتهم فى جمع الكلمة واستمالة القلوب .

علمنا مما تقدم كيف تصافرت لانهاض الخطابة دواع حافزة ، وشعب بليغ يجل الخطابة ، وخطباء مطبوعون ، تملؤهم الحكمة والعقيدة الراسخة ، وكل هذه الأمور كفيلة بترقية الخطابة ، والوصول بها إلى أعلى درجات الكمال .

ولقد كان لها كل ذلك ، فما كادت البيعة تتم لبني العباس بالكوفة حتى قام كبيرهم وداهيتهم (داود بن علي) على منبر الكوفة يخطب جماهير العرب ، ببيان لا يقف دون غاية ، ويحمد الله على أن أقر الأمر في نصابه . وأدال لبني هاشم من عدوهم ، وبين أنهم ما خرجوا طمعا في جاه ، ولا جريا وراء دنيا ، وإنما أخرجتهم الأنفة والغضب لآل هاشم ، وللعرب عامة ، من ظلم رأوه واقعا ، وحيف ألحت عليهم أرزاؤه ، إلى أمثال هذا مما تستقيد له النفوس الجامحة ، وتهدأ عنده القلوب الواجفة ، ثم لا ينسى أن يلم إلمامة بسابقة أشياعهم من آل خراسان فيذكر أنهم جندهم وأعوانهم ، ثم يذكر أنه يخطب العرب في قرارة جندهم ، فيعود إلى سيرته الأولى من الاشارة بفضل قومه ، وبيان مآثرهم ، والمباهاة ووضوح الحجة بخليفتهم أبي عبد الله السفاح .

وإنك لتجد في خطبته وخطب أبي جعفر المنصور شدة الأسر ، وحسن الخطابة ، وحلاوة الوعد ، وصراحة الوعيد ، وانسجام القول ، وتسلسل العبارة ، وبراعة الحجة ، مع سرعة خاطر ، وبراعة في اقتباس آي الكتاب العزيز .

ظلت الخطابة قوية متدفقة ، تؤدي واجبها كلما حزب الخلافة أمر ، وألم بالدولة طارئ ، مما شأنه أن يثير النفوس ، أو يحرك الحفائظ ، ولقد كانت عدة أبي جعفر لدى الشيعة في تعبير بطشه بمحمد و إبراهيم (ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي) ومن معهما من آل البيت كما كانت عدته لدى الخراسانيين وتدبيرفتكه بأبي مسلم داهية الفرس ، وقاهر بني أمية ، وأكبر أعوان بني العباس .

ولما هدأت أمور الدولة وسرعان ماهدأت ، انصرف الخلفاء إلى تأثيل الحضارة . وتوطيد دعائم الملك ، وتوسعة نطاق العلوم ، ولم يبق للخطابة العامة تلك الدواعي ، فغدت مقصورة على خطب الجمع والعيدين والزواج ونحو ذلك ، وحل محلها التدريس في المساجد وكتابة المنشورات فاستعيض منها بالرسائل المسهبة كرسائل الجيش التي كان يكتبها كبار الكتاب ، كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف ، ولكن لم يزل للخطابة جلالها ، وإن فات أغراضها ، فكان يقوم بخطب الجمع والعيدين الخلفاء أنفسهم ، يخرجون لها في أبهة الملك ، وشارات العظمة ، وينوب عنهم في الأقاصي ولاة الجهات من أعلام البيان

وظلت الحال على ماوصفنا حتى طغى تفوذ الديلم والأتراك فنفسوا على الخلفاء مقام الخطابة ، ولم يدعوا لهم ذلك المظهر الديني الجليل ، فكفوهم عن خطبة الجمعة والعيدين

فصار يقوم بها خطباء من علماء الأمة ، وإن فاتهم شرف الخلافة فلم يفتهم جلال العلم ، وحسبك أن يكون من بينهم الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ والخطيب أبو زكريا التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ وخطيب الرى ضياء الدين عمر وابو الفخر الرازى المتوفى سنة ٥١٢ وكان الأمر على هذه الصورة فى غير العراق ، إلا أن الخطابة ظلت محافظة على شىء من الروعة ، تتناول بعض الأغراض العامة فى جزيرة العرب لبعدها عن مهاب العواصف السياسية ، حتى أغار على الجزيرة لزنج والقرامطة فأفسدوا اللغة وأزالوا كل مظاهر الخطابة ، وأعادوا العرب فى جزيرتهم إلى جاهلة عمياء .

ولقد كان الخليفة الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ آخر خليفة تمتع بمظهر الخطابة الدينية ، كما كان آخر خليفة جرى على سنة أسلافه الأمجاد من مجالسة العلماء والحديث إليهم ، وآخر خليفة له شعر مأثور

ولقد مضى العصر العباسى الأول وشأن الخطابة ماعلمت ، فلما جاء العصر الثانى ، زادت الحال سوءا ، وأصبح يلى الخطابة رجال قليلو الكفاية ، ثم تفاقم الأمر فأصبح الخطباء يرددون كلام غيرهم ، ويستظهرون خطب سواهم أو يلقونها من الصحف ، وكان ذلك فى الشرق أظهر منه فى الغرب ، وسبب ذلك التفاوت أن منيت الجهات الغربية بغارات الصليبيين ، وشغل بعض أمرائها بالحروب كسيف الدولة بن حمدان ، فوجدت للخطابة العامة دواعيها ، فكان من أغراضها التى امتازت بها على خطابة الشرق استنفار الجماعات للجهاد ، وحفز الهمم ، وإثارة النخوة ، ولقد كان من شأن ذلك أن ينهض بها إلى درجة عالية ، لولا أن استعداد القوم للتأثر بالخطابة ضعف وتضاءل

وإن الخطباء اليوم مهما واتاهم الإخلاص لا يزالون تعوزهم الكفاية التامة ، التى توافرت أسبابها للفحول من بناة الدولة العباسية ومن شايعهم من الولاة والأنصار ، ولكن الخطابة خطت خطوة واسعة فى البلاد الغربية للسبب الذى أسلفناه ، وإن كانت لا تزال بعد ضعيفة مجدوعة فاترة الروح ، ضعيفة العبارة .

ولقد كان من خطباء هذه الجهات فى هذا العصر ، ابن نباتة الفارقى خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ، وزكى الدين الدمشقى خطيب أول جمعة صليت فى بيت المقدس بعد استرداده من الصليبيين المتوفى سنة ٥٦٤ (ولهما ديوانا خطب مشهوران يعول عليهما فى زماننا أكثر خطباء المساجد) والخطيب ابو إسحق الطرفى خطيب الفسطاط المتوفى سنة ٩١٣

دانيل ديفو - ١

Daniel Defoe

بقلم (اوجين سو)

ولد مؤلف « وقائع روبنسن كروزو » التي جعلت له شهرة عالمية في لندره عام ١٦٦٦ وكان أبوه قصاباً في حي « كريبلجيت » في دائرة كنيسة « سان جيل » ومع الاشراف إلى أن يغرس في ذهن الولد أحب التعاليم الدينية التي يراها جوهرية لسعادة حياته لم يغفل تربية عقله .

ومن سنة ١٦٧٤ إلى سنة ١٦٨٠ عهد به إلى معلم عاقل ماهر ساعدته سهولة تلميذه على أن يتلقى دراسات عظيمة ، وقد قال « دانيل ديفو » لأحد الفداحين حين رماه بالجهل :

(إني أستحق هذا الحكم لوانه من أبي المسكين الذي مازال على قيد الحياة وأصرح بأنه لو كان من سوء الحظ أن أكون غبيا فلا يتهمهم أحد في ذلك سواي ؛ فأن موجدي المحترم في الحياة لم يدخر وسعاً في أن يجعلني أمضي في الحياة في مستوى العالم الدكتور ب ، أو العلامة تونسن) .

وفي الوقت الذي نشر فيه ديفو أولى نقداته السياسية (١٦٨٤) كانت المعارضة في انجلترا قوية ضد « جان الثاني » الذي أغضب الأمة لرغبته القوية في إقرار الكاثوليكية في بلاده ، واستحال الاستياء في سنة ١٦٨٥ إلى حمل الاسلحة بأيماز من الدوق (منموت) واشترك الكاتب الشاب المتحمس في هذه الثورة التي قمعت بسرعة وشدة .

ولما كان من سوء حظه أن أفلت من أخطار المعركة ، ولم يذكر عن القضاة الذين تولوا محاكمة العصاة شيئا ، فقد استطاع أن يعود إلى (لندن) ولم يكن غيابه عنها ملحوظا ، وفيها أخذ يدرب مواهبه على التجارة ، وكانت هذه هي الغاية التي يرجوها له أهله ..

ولما صار عينا في المدينة سنة ١٦٨٧ ، غامر بتجارة القبعات ويقال — إذا صحت الأقوال — إنه تزوج في هذا الحين . وقد قال أحد الذين دونوا تاريخ حياته :

« وكان المرجع في ذلك الوقت إليه إذا ما أراد التمتع بالحياة الزوجية وبثمرات مهنة تدر ربحا كثيراً ، ولكن تحمسه الديني دفعه إلى المغامرة في مجادلات دينية ، هذه المسألة التي كانت تثير هذه المملكة ، ولم يلبث أن عرف كنقاد مجادل تماثل قوة فكرته وقوة فصاحته الفياضة الجذابة .

وكان (غليوم دى هولند) يدس الدسائس ليسلب حماه جان الثانى ملك انجلترا تاجه .

وقد وقعت هذه الثورة التى كان يتمناها ديفو سنة ١٦٨٨ ، ولهذا شوهد فى موكب الملك الجديد الذى لم يلاحظ إلا بعد هذا الرجل الكاتب .

وكان من كثرة اختلاطه بالأندية والمجامع التى كانت تكتظ بالحاضرين نظرا لسمو أفكاره ورجاحة عقله ، أن أهمل العناية بأعماله التجارية التى أخذت فى التدهور حتى جاء يوم أوشك فيه أن يشهر إفلاسه ولكن من حسن حظه أن أكثر دائنيه الذين كانوا يحبونه ويحترمونه كل الاحترام ، أوقفوا تنفيذ الحكم ، ورضوا بتخفيض دون أى ضمان سوى إمضائه . .

ولما أن ثاب إلى نفسه بشعور الشرف أخذ يبحث عن عمل للحسابات ، وكذلك عن عمل أدبى ليقوم بتعهداته ، ولم يمض وقت طويل حتى صار من زمرة الكتاب المجيدين الناجحين .

وقد أمر ديفو القلوب بما نشره من البحوث فى المسائل التى تشغل الرأى العام وهكذا أوجد له موارد كانت على كل حال ذات وفرة نسبية إلى أن سنحت له الفرصة بمعالجة موضوع إذا لفت إليه نظر الملك غمر بالمجد والتكريم والثروة . .

ولم يكن الحكم الجديد موجبا الارتياح العام وكان التمييز الذى يبديه غليوم الثالث لأخصائه وجلسائه ومواطنيه مما زاد فى عدد المستائين يوما على يوم وهم الذين كانوا يصفونه بغضب وحنق (بانجليزى الصخرة القديمة) احتقارا للهولنديين الذين جاءوا على إثر الملك .

وقد نشر الشاعر الكبير توتسن — الذى مر بنا ذكره — كتاب قدح أصحاه (الأجانب) لم يتعرض فيه بالقول المقذع ضد الهولنديين فحسب ، بل أخذ غليوم الثالث على بعض جرائم فظيعة للغاية ، فتوقدت قريحه ديفو وتمخضت من قطعة هجاء عنوانها (انجليزى الصخرة القديمة) كان لها دوى هائل وأكسبته الحماية الخاصة والرعاية من الملك .

ولما صار دانيل ديفو منذ الآن شهيرا ولو مؤقتا ، ورفع إلى ما فوق العامة ، انتهز هذه الفرصة بوجه خاص ليفى ماعليه من ديون خفضت قدرا كبيرا . ومن هذا الحين بقيت حياة الكاتب (وهو مطبوع على النقد القوى) نشطة عاملة وثائرة بحالة غريبة من جرائر حالات يتعرض لها ضميره ويقينه وحرارة طبعه ومزاجه تدفعه إلى التسليم بها أو مناهضتها .

كامل كيلانى